أدب وفكر

هدأت العاصفة وبقيت الأسئلة
سيرة حياة د. عبد الرحمن بدوى

هدأت نسبيًا الضجة التى أثارها كتاب د. عبد الرحمن بدوى «سيرة حياتى» الذى صدر فى جزئين ويؤرخ فيه لعصر كامل من رجال وأحداث ومواقف.

وبدوى الذى يعيش فى باريس منذ عام ١٩٩٦ له وجهة نظر، يتحدث عنها فى كتابه بصراحة شديدة. لذلك حدثت الضجة الهائلة والزلزال العارم وتوابعه المختلفة، فى رد على أستاذ فلسفة اراد أن يقدم شهادته الشخصية عن عصره وناسه والمواقف التى خاضها ترجمة لقناعات يعتقد بها.

والناس مجموعة من الأفكار، وحزمة من المواقف وتاريخ المفكر هو القناعات التى تمثل رحلته فى العالم، وردود الفعل الذاتية المرتبطة بشخصه والانتماء الاجتماعى، والوضع الطبقى. والفلسفة التى يعتقد بصحتها.

وقد احدثت سيرة حياة د. عبد الرحمن بدوى ضجة هائلة، وصدمت بعض آرائه القناعات وصدمت بعض آرائه القناعات المختلفة سواء عن التاريخ أو عن مواقف مرتبطة بالحياة الاجتماعية فى مصر والعالم العربى.

وصدرت للمؤلف عدة كتب فى كافة مناحى الفكر الإنسانى. إلا أن تأثيره ظل محدودًا داخل دائرة الفكر الاسلامى أو حياة المثقفين.

ومؤلف السيرة الذاتية مفكر فى علوم الفلسفة وله اجتهادات معينة، فى عمليات رصد بنية الفكر الإسلامى أو شرح وتحقيق المراجع المهمة فى تاريخ الفلسفة اليونانية حتى المدرسة الإسلامية.

ويغلب على أعمال د. بدوى التجميع، والشرح، والترجمة. وخلال مسيرة فكرية طويلة أصدر عشرات الكتب عن «نيتشه» المفكر الألمانى وغيره من أعلام العصر.

وقد ظلت شهرة بدوى داخل أروقة الجامعات، واختفى من الحياة الجامعية المصرية بعد أن استقر فى باريس، الذى وصل إليها فى عام ١٩٦٧ ولا يزال موجودًا هناك.

ونتيجة اختيار الإقامة بعيدًا عن مصر والعالم العربى، سقطت من الذاكرة الفكرية ميمات أستاذ الفلسفة فى الحياة المعاصرة. غير أن كتبه لا تزال تواصل تحريك الأفكار لأجيال من دارسى الفلسفة.

وقد انتبهت الأمة إلى وجود د. بدوى وأنه لا يزال حيًا ومؤثرًا فى دائرة الفلسفة، والفكر عندما أصدر سيرة حياته فى كتاب، جرى تأليفه بصراحة شديدة للغاية حققت صدمة، لمن اعتادوا على عدم سماع الرأى الآخر، واستمرار غلق النوافذ على الفكرة الواحدة والاجتهاد الواحد ورفض الإنصات إلى آراء مختلفة تأتى من ضفة أخرى، ومن قناة فكرية قادمة من محيط مختلف عما اعتدنا عليه.

وليس كل ما قاله بدوى سليمًا أو صائبًا، لكن تلك رؤيته وانطباعاته. قالها بصراحة دون مواربة أو التفاف أو الاعتماد على الرمز. وقد هاجم استاذ الفلسفة الجميع بأسلوب حاد ابتداءً من طه حسين حتى العقاد وزكى نجيب محمود.

وبسبب هذه الآراء لقى كتاب د. بدوى رد فعل عنيف من أنصار تلامذة العقاد ومحبى طه حسين والمهتمين بأدب أحمد أمين ودراساته التاريخية التى خرجت عن الحقبة الإسلامية فى عمله الممتع، فجر الإسلام وضحاه وظهره.

وقد خص بدوى أحمد أمين بالهجوم الشديد، واتهمه بالسطو على أبحاث ودراسات لتلاميذه وتحويلها إلى كتب بأسمه!

وكتاب د. بدوى يضم القذائف الصاروخية لهدم قناعات الناس عن طه حسين والعقاد وغيرهما من الأدباء والمفكرين.

ويبدو د. بدوى فى حالة غضب واحتجاج، وقد عرف خلال حياته الجامعية بالعقلانية والاجتهاد فى عالم الدراسات الفلسفية، فلماذا تحول من موقف عاقل رشيد إلى غضب عارم؟ أطلقه من منفاه الاختيارى فى فرنسا ضد مفكرين وأساتذة كبار، يحظون بتقدير واحترام فى العالم العربى كله.

إن «طه حسين» لا يزال رغم وفاته فى عام ١٩٧٣ نقطة ارتكاز مهمة داخل خيمة الأدب، والدراسات الأدبية، والاجتماعية.

وقد جاء طه حسين بمنهج تجديد واحترف العمل السياسى ووقف خلف تطوير الجامعة المصرية ووصل إلى منصب وزير التعليم.

وحياة طه حسين حافلة بالمواقف والآراء، التى لازالت تثير الخلاف حولها، وتجدد الحوار خصوصًا أنه كان فاعلاً فى الحياة الاجتماعية والأكاديمية ونادى بحق المواطنين فى العلم لأنه كالماء والهواء.

فى كتاب د. بدوى لا نجد «طه حسين» الأكاديمى اللامع والمفكر الحر، وإنما نجد الموظف الضعيف، بلا وهج، حيث يطعن فيه المؤلف وشكك فى قيمته العلمية والشخصية.

وليس طه حسين فقط الذى يتعرض لنيران المؤلف الغاضب، وإنما كل من تواجد فى عصر

عبد الرحمن بدوى من مفكرين وسياسيين، يفتح صاحب كتاب «سيرة حياتى» عليهم النار ويهاجمهم بعنف، ويقلل من قيمتهم العلمية.

ويكشف الكتاب عن حالة مرارة شديدة وإحساس بالغبن وعدم التقدير، لذلك يقلب المؤلف الطاولة على الجميع، وعلى العصر كله من سياسيين ورجال علم لأنهم لم ينصفوا د. بدوى شخصيًا الذى يشعر بعبقرية لم يكرمها المجتمع.

وتشعر عند قراءة سطور د. بدوى بهذه المرارة الشديدة، والحساسية المفرطة تجاه نفسه. وشعوره بالعبقرية التى لم يمنحها المجتمع ما تستحقه من تكريم وإشادة، لذلك اختار المنفى الذاتى إلى فرنسا احتجاجًا على هذا الموقف.

ولا يمكن اعتبار كتاب د. بدوى وثيقة تاريخية موضوعية. تؤرخ للعصر والناس فى هذه الفترة التى احتك فيها بالحياة الاجتماعية والجامعية. لأن المؤرخ هنا يكتب من رؤية ذاتية محضة تمثل شهادة مرتبطة بظروف هو بمعنى أن د. بدوى رأى العصر من خلال نفسه. وأعطى شهادة تترجم مواقفه هو سواء الاجتماعية أو التاريخية.

وكتاب بدوى شهادة ذاتية، كان يمكن أن تمر بهدوء لولا الحساسية المفرطة من الرأى الآخر، والموقف الذى يتمرد على قناعات عامة، سواء تجاه الشخصيات أو التاريخ.

وإصدار هذا الكتاب يمثل رأى د. بدوى فى العقاد وطه حسين وأحمد أمين وزكى نجيب محمود، ولا تعنى شهادته أنها تمثل الحقيقة، لكنها تحفز لمعرفتها أكثر.

وهذا الكتاب يجدد الجدل حول كتابة التاريخ، وفى ظل غياب الوثائق. ومن حق كل فرد أن يقدم شهادته ويلون الوقائع بظروفه هو وموقفه وشعوره الشخصى.

ويضم «سيرة حياتى» حشدًا من المعلومات، تخرج عن طرق الكتابة الذاتية. لكن المؤلف حريص على استعراض معلوماته الجغرافية والسياسية، ويقدم هنا وثيقة عن إعجابه الشخصى بألمانيا تحت قيادة هتلر.

وأهم ميزة لهذه المذكرات الصراحة المطلقة والحديث بعيدًا عن المجاملات.

ويعيش د. بدوى فى جزيرة منعزلة ويقيم داخل أركان نفسه. وكل ملاحظاته تدور حول الذات ومظاهر العبقرية المرتبطة بها. ويوجه اللوم إلى كل فرد. وللظروف الاجتماعية التى أحاطت بوجوده فى مصر حتى خروجه منها.

وقد هاجم الكتاب د. عثمان أمين بضراوة، وهو أستاذ الفلسفة الراحل وقرأت فى الآونة الأخيرة فصلاً من كتاب د. عبد الغفار مكاوى ذكر عثمان أمين بالتقدير والحب.

وشخصيات مكاوى أدبية فنية. بينما د. بدوى المتأثر بهتلر ونيتشه. شن الهجوم على الجميع واتهمهم بالقصور والنفاق والسرقة الفكرية والأدبية.

والتأمل فى كتاب بدوى، يعطى قناعة بفساد العالم، وفساد النفوس البشرية، فالجميع لدى المؤلف فشلوا فى ترجمة معانى الإنسان العليا كما حكى عنها فيلسوف النشوء والارتقاء نيتشه.

ويطبق بدوى معايير فلسفية على شخصيات عصره فلم ير فيها التألق الأخلاقى، أو العبقرية الفكرية.

وهو لا يعترف بعبقرية أحد ويعد كتابه ترجمة شخصية لردود فعل على العصر والناس، كتبها من شاطىء المنفى الباريسى.

وكان رد الفعل لهذه الكتابات عاصفًا، لأن د. بدوى هدم معبد قناعات ثابتة عن مفكرين وأدباء وشخصيات سياسية.

ولولا التطرق فى لغة العداء، والرفض فى كتاب د. بدوى لكان يمكن أن يكون مجددًا لحوار بناء حول إعادة التقييم بأسلوب علمى بعيدًا عن التطرف.

وكتاب بدوى محير فى الحقيقة، لأنه من جانب يعتمد على صراحة مطلوبة فى كتابة المذكرات ومن طرف آخر يشن هجومًا شخصيًا على أسماء صنعت نهضة وأحدثت تقدمًا فى الحياة الجامعية والأكاديمية.

إن أحمد أمين مثلاً تقف خلفه سلسلة من الأعمال فى مجال الحياة الجامعية. وقد كتب عشرات الكتب المهمة، ولا يمكن نسفه على طريقة د. بدوى الإرهابية، لكن يمكن بالتأكيد نقد أحمد أمين، وإعادة دراسته وفتح الحوار حول دوره فى مجال الفكر الإسلامى.

ولم يغفل بدوى شيئًا من هذا كله، غير اتهامه له بسرقة أبحاث طلابه!

وقد انتظر الناس شهادة مفكر كبير مثل بدوى على العصر والأفكار والشخصيات، غير أن شهادته غرقت فى ردود فعل ذاتية. وغضب شخصى ومرارة واضحة.

لقد كتب لويس عوض مذكراته «أوراق العمر» وعندما تعرض للعقاد وطه حسين، قام بتحليل اسهامهما ودورهما.

ورغم أن لويس عوض قد يختلف مع العقاد فكريًا واصطدم معه خلال حياته حول الشعر وكتابة أوراق التراث، غير أن عوض لم تكن لديه مرارة أو معركة شخصية مع العقاد. وقد قرأ سيرة الرجل فى إطاره عصره وتركيبته الاجتماعية والفكرية والمؤثرات المسؤولة عن الكثير من مواقفه.

وصفحات د. بدوى فيها الغضب أكثر منها التأمل. فالمؤلف غاضب وناقم معًا، حتى عندما تعرض لمشكلات اجتماعية عالجها بمرارة ذاتية ولم ينظر إلى عمقها العام.

لقد كان تولستوى متعاطفًا مع بؤس الفلاحين الروس، هو الارستقراطى من طبقة النبلاء. إلا أن بدوى فى كتابه يتهم الفلاح المصرى بالخبث والمكر ويشن عليه حملة ظالمة لمجرد أن هذا الفلاح تطلع إلى بعض العدل الاجتماعى.

والمنكر رغم أنه ابن طبقة إلا أن نزعته الإنسانية تجعله دائمًا خارج إطار الطبقات لتمثله القيم العليا وتعاطفه مع الضعفاء والأقل قوة فى تركيب المجتمع.

وقد تعجبت من موقف بدوى الغريب فى هجومه على فلاح معدم، ليس لديه وسائل الحياة الحديثة ويحاصره الجهل والفقر والمرض.

وكان سلامة موسى، المفكر الراحل يناصر هذا الفلاح بينما د. بدوى من مقره الباريسى هاجم الفلاح المصرى الفقير واتهمه بالطمع!

والمنكر موقف يرى فى مراته قيم الحق والصواب فيدافع عنها، وكل المفكرين الكبار انتصروا لهذه القيم. وقد كان طه حسين من أمثال هؤلاء فجعل العلم وسيلة لمحاربة غياب العدل والجهل ودعا أن يكون العلم كالماء والهواء، بهدف نهضة المجتمع.

وتبدو لدى بدوى حسرة شديدة ومرارة بالغة، واضحة فى كتابه، الذى لم يفتح نافذة يستطيع القارئ أن يرى منها بعض الضوء داخل شخصيات صب عليها المؤلف الهجوم الكاسح.

وكتاب بدوى وثيقة للمرارة الذاتية، وإحساس العبقرى بأن المجتمع ظلمه بقدر ما. وقد عاش المؤلف داخل أروقة الحياة الجامعية وكان ملحقًا ثقافيًا لمصر فى سويسرا، ولم يعان بعض ما عاناه مثقف مثل د. بدوى عوض الذى رغم شعوره بالمرارة إلا أنه فتح عشرات النوافذ عن أمل مرتبط بالحياة، والعلم، والقدرة على مواجهة التحديات.

والفرق بين لويس عوض وعبد الرحمن بدوى، أن الأول أكثر قناعة بتأثير الفكر على التغيير مهما كانت عوامل الإحباط، أما الثانى الذى تربى داخل الفكر الذاتى الأوروبى فلا يرى سوى النفس وعبقريتها وفشل المجتمع فى الاعتراف بهذه الموهبة.

إن أصول بدوى الفكرية ألقت به فى هذه الأزمة، بينما د. طه حسين مثلا وقف إيجابيًا من أزمات الحياة ووجد أن الحل هو فى دعم التعليم أى خلق الظروف الملائمة للتنمية وإفساح الطريق أمام العقل والثقافة.

ويبدو التعليم عند د. طه حسين هو الحل، بينما د. عبد الرحمن بدوى وجد أن الفلاح طماع، والمجتمع جاهل، والجامعة ساقطة فى النفاق.

إن أزمة د. بدوى ذاتية، لكنه عكسًا على الجميع. وصدق الذين ردوا عليه مقولته، وكان الأجدر بهم حصر كتاب «سيرة حياتى» فى إطار أوراق خاصة جدًا لمفكر ذاتى تمامًا عن العصر والناس.

وإذا تناولنا كتاب د. بدوى من هذه الرؤية سيكون له أهمية، ليس فى معرفة طه حسين والعقاد وأحمد أمين وإنما فى التعرف على الظروف والوسائل وأحداث التاريخ التى صنعت قناعات د. بدوى وجعلته بهذه المرارة الغاضبة.

الأديب والناقد فى رحلة الثقافة والوطنية

رحب الناقد والأديب المصرى د. صبرى حافظ بالكاتب الكبير محمود السعدنى خلال الزيارة التى يقوم بها للعاصمة البريطانية، والتقاء السعدنى وحافظ يعبر عن حوار الأجيال فى ساحة الثقافة المصرية، واستمرار عملية التواصل بين أديب وناقد يجمع بينهما الاهتمام بتاريخ مصر والحركة الثقافية بشكل عام.

ويميز الكاتب محمود السعدنى هذا الأسلوب الفريد فى الكتابة الذى يهمه الوصول إلى أكبر عدد من الناس، لذلك يعتمد قاموسه على مفرادات الحياة اليومية، والأمثال الشعبية واللغة المحكية التى يستخدمها أبناء الشعب فى رحلة الحياة اليومية، والسعدنى يعتمد على هذا الأسلوب لأنه كاتب يتجه للناس، ويتحدث معهم بلغته البسيطة، التى تقترب من أكثر الموضوعات الشائكة بلغة واضحة تبتعد عن الأسلوب القاموسى وطريقة المعاجم والتعبيرات الأكاديمية التى تتعثر دائمًا فى الوصول إلى مساحة عريضة من الناس.

وقد كتب عشرات النقاد عن أعمال السعدنى فى الرواية التى دخلها بعمله البارز «حتى يعود القمر» والمجموعات القصصية «من السماء السوداء» إلى «حارة السعدان» فى أعمال تقترب من نهر إبداعى مختلف ركز على «الحارة المصرية» وتاريخ لنوعية شخصيات أبناء البلد، بكل القيم والأفكار المرتبطة بهم ومعارك السعدنى السياسية أثرت على أدبه وحجمه فى هذا العالم، غير أن الناقد محمود أمين العالم تناول تجربته المسرحية التى أعتمدت على الأجواء نفسها فى واقع الحياة الشعبية.

والدكتور صبرى حافظ موجة أخرى من نهر الحياة الثقافية المصرية، فقد انتمى إلى تيار حركة الستينيات التى جاءت بطفرة جديدة فى الشعر والرواية والمسرح وكان هو الناقد الذى تابع هذا الجيل وكتب عنه فى قراءة نقدية جمالية اعتمدت على المنهج الاجتماعى، وتلمس الآفاق المرتبطة به، وقد دخل الناقد المصرى إلى عالم الدراسات الأكاديمية بهذا الالتزام، والرؤية، والمتابعة، وإنتاجه النقدى يواصل قراءة الأفكار الشابة فى عالم الرواية والقصة والشعر والإبداع بشكل عام.

وكان جميلاً مراقبة لقاء محمود السعدنى بصبرى حافظ ومتابعة الحديث عن شئون الثقافة المصرية، والأجيال الشابة، والكتابات الجديدة وذكريات عن حركة الإبداع المصرى التى

انطلقت فى مصر قبل الثورة واستمرت خلال هذا الزخم الكبير فى قضايا الفن والأدب.

وقد أرخ السعدنى لهذه الموجة الأدبية والنقدية من خلال متابعة رواد مقهى عبد الله فى الجيزة، الذى كان الصالون الأدبى الذى تجمعت فيه أسماء أنور المعداوى، نعمان عاشور، زكريا الحجاوى، والسعدنى نفسه.

وصبرى حافظ ينتمى إلى بقعة ثقافية أخرى، التى تجمعت حول نجيب محفوظ فى ندوته الأسبوعية على مقهى الأوبرا، ثم الانتقال إلى مقهى ريش، وهذا الأخير هو الذى دشن موجة أدب ونقد الستينيات مع حوارات إبراهيم منصور وشعر أمل دنقل ونجيب سرور.

وجاء لقاء السعدنى وحافظ ليعكس تواصلاً بين جيلين مختلفين لكن يجمع بينهما الارتباط بمسيرة مصر الثقافية والإرتباط بالنهج الوطنى والالتزام بتقاليد الوطن والتماس مع أحلام العدل الإجتماعى، وتيار الحرية الديمقراطية.

ويكن السعدنى لصبرى حافظ الإحترام والإعجاب بمسيرته الطويلة فى مجالات النقد والإبداع الثقافى، ومواقفه خارج مصر خلال رحلة الدراسة فى جامعة أكسفورد ثم العمل بجامعة لندن، وقد أشاد الكاتب الكبير دائمًا بصبرى حافظ، والانتماء الوطنى والتألق النقدى.

ويخص د. صبرى حافظ السعدنى بمحبة بالغة، ومتابعة لكتاباته الأسبوعية فى مجلة «المصور» المصرية، والتى يكتب فيها حافظ نفسه.

وكان لقاء لندن فرصة للحوار المشترك، والحديث عن كتابات السعدنى الأخيرة، والمعركة التى انفجرت فى مصر حول كتابه الذى صدر منذ ثمانى سنوات «الطريق إلى زمش» وآثار الشجار الفكرى والسياسى من خلال مقالات رفعت السعيد وفتحى عبد الفتاح و«السعدنى» الذى نشرته مجلة «الهلال».

وتحدث السعدنى عن كتابه «حمار من الشرق» وعن كتبه الأخيرة التى تمثل مرحلة من الكتابة تعتمد على المزج بين حكايات ذاتية ورؤية عميقة تتجاوز ووقائع القصة المادية لتنفذ نحو الجوهر والجذور فى رحلة الناس والحياة.

وأبدى د. صبرى حافظ اهتمامًا كبيرًا بالسعدنى، فهو رمز لجيل قدم ريادة فى جميع المحاور، الأدب والثقافة ودفع الثمن الباهظ نتيجة الإيمان بفكره والدفاع عنها، ويجمع بين الاثنين هذا العامل المشترك وهو دفع ثمن الثقافة والانتماء، غير أن السعدنى وحافظ معًا يفرقان بين الذاتى والموضوعى، وموقفها غاية فى التألق فى الدفاع عن قيم وطن ومصلحته فى التنمية والبناء.

لقد كان اللقاء ممتعًا بين رمزين لجيلين يجمع بينهما هذا الوهيج الوطنى وحب الثقافة واستخدام الكتابة فى حرفة الإبداع والالتزام أيضًا.

صورة مصر فى أدب نجيب محفوظ

تناول د. رشيد العنانى أستاذ الأدب العربى بجامعة أكستر ببريطانيا حياة الأديب المصرى البارز نجيب محفوظ، الحائز على جائزة نوبل للآداب فى محاضرة مهمة طافت بعالم الروائى لقراءة تاريخ مصر القديم والمعاصر من خلال روايات كتبها بإيقاع الزمن المصرى ترجمة أمينة للغاية للوجدان العام للأمة، وللتيارات المختلفة التى سيطرت على مشهد الثقافة، والتاريخ، والصراعات الفكرية.

ود. العنانى يعيش أدب نجيب محفوظ فى رحلة نقدية مستمرة معه، تواكب لحظاته الكبرى والمحطات التى توقف عندها، سواء فى الحقبة الفرعونية، أو خلال بحث مصر عن نفسها فى ظل الاحتلال والثورة القومية ضده. كما أن قلم الكاتب راقب مرحلة ثورة يوليو فى أعمال نقدية كبرى بدأت مع «السمان والخريف» واستمرت حتى «ثرثرة على النيل» وهى الرواية التى جاءت قبل النكسة تمامًا، ويرى النقاد أنها كانت العمل الأدبى الذى توقع هذه الهزيمة الضاربة التى عاشها المجتمع المصرى.

ويؤرخ أدب محفوظ لمرحلة عصر السادات، والحراك الذى جرى فى ظل سياسة الانفتاح وهو ما جسده فى أكثر من رواية بارزة، تعد المعادل الموضوعى الأدبى لهذه المرحلة وما حدث بعد تحرير الأرض فى السادس من أكتوبر ومرحلة البحث عن السلام والانتهاء باغتيال «السادات» على يد المعارضين له من أنصار الحل الإسلامى، ومجموعات الاحتجاج الدينى.

ويميز الأكاديمى المصرى القراءة الجيدة لأعمال محفوظ. وقد عكف على ترجمة رواية «حضرة المحترم» إلى الإنجليزية، وله أكثر من كتاب فى رحلة متصلة مع أعمال الكاتب المصرى الكبير.

وقراءة العنانى لا تعتمد على منهج أيديولوجى مثلما فعل بعض النقاد أمثال إبراهيم فتحى ومحمود أمين العالم. وإنما رحلته النقدية تعتمد على تفسير روايات محفوظ من داخلها، وفى المحاضرة التى ألقاها فى المركز الثقافى المصرى ركزت على ربط محفوظ بالتاريخ المصرى مع قراءة الخطوط الرئيسية لمرحلة رواياته الفرعونية. ثم الانتقال إلى الواقع نفسه مع الارتباط بنهر الحياة فى دولة محتله، ينمو تطورها الاجتماعى فى ظل طموح جارف للخروج من حالة الحصار التى تم فرضها، والضائقة الاقتصادية التى كانت تعيش فى ظلها الطبقات الشعبية.

وعبرت عن هذه الحالة رواية القاهرة الجديدة التى شرحت ظروف الكساد ،والتفكك

الاجتماعى الذى يعود إلى الفقر، وفساد الطبقة العليا الحالة التى لم تكن تهتم بالواقع المصرى.

وتطرق العنانى إلى رواية «زقاق المدق» الثرية بالمعانى، والدلالات التى يمكن تفسيرها بأكثر من رؤية، واتجاه نقدى، وكان الكاتب افتتح روايته على العصر وانتقال مقهى المعلم «كرشة» من السماع إلى حكايات الراوى لأبطال السير الشعبية إلى عصر «الراديو» فى إطلالة على زمن آخر. لكن مصر كانت محاضرة فى زقاق ضيق من الجهل وغياب القوة الاقتصادية التى عرقلت نموها. وكان الخروج من الحارة بحثًا عن العمل يأتى فى الانضمام إلى معسكرات الجيش الانجليزى فى مدن القناة.

وتوقف المحاضر عند هذه الرواية العملاقة التى ترسم صورة دامية للطموحات المكبلة، والتعثر فى الحياة العامة وخروج «حميدة» بطلة الرواية إلى وسط القاهرة للعمل فى حاناتها. فقد كانت جاهلة وفقيرة وطموحه وتحلم بالثراء.

وكانت «زهرة» فى «ميرامار» تعيش الأزمة نفسها، لكنها اختارات التعليم للخروج من عثرة الجهل، والفقر، والتحكم فيها، ونهم الرجال إليها.

واذكر كيف كيف أن نقاد حقبة الستينيات فرحوا بنموذج «زهرة» التى تفتح طاقة الأمل فى مجتمع جديد. فبينما سقطت «حميدة» فى مستنقع الرذيلة ومات خطيبها «عباس الحلو» «فى مشاجرة مع الإنجليز» جاءت «زهرة» فى الستينيات تعبر عن قسمات جديدة.

ورغم الانتقاد الواضح لثورة يوليو، غير أنها أحيت الأمل فى موضوع التعليم وقدرته على التغيير، وفك أزمة المجتمع. وقد استوعب المصريون هذه الحقيقة رغم موجات أخرى من التزييف لهذه القضية.

وبدأ العنانى محاضرته التى ألقاها بالإنجليزية فى تتبع أدب نجيب محفوظ من الحقبة الفرعونية إلى دخول المرحلة الواقعية التى انتهت بعمله الضخم «الثلاثية».

وعندما قامت ثورة يوليو توقف عن الكتابة لمدة ست سنوات ثم عاد بعمله البارز «أولاد حارتنا» الذى آثار عليه مجموعات التطرف التى فسرت الرواية بطريقة خاطئة، وهى فى جوهرها محاولة لرسم صورة للكون فى الصراع على الأرض بين العدل والظلم، والقوة والحق.

وقد تقع الرواية فى تفسير وقائع هذه الأيام عندما نقارن بين رؤية محفوظ ومحاولة بعض «فتوات العالم» فرض الوصاية اعتمادًا على القوة وليس الحق.

وكانت «الثلاثية» هى المعادل الأدبى، والروائى لمصر مع بداية القرن الماضى ووجود الاحتلال والثورة القومية ضده. وتسجل «بين القصرين» هذه الحالة من الخمود والانكسار لكنها تبرق فيها ثورة ١٩١٩ الكبرى والهبة الشعبية ضد سلطة الإنجليز. والتظاهر من أجل

سعد، وحزب الوفد الذى حمل لواء المعارضة.

وتبين «قصر الشوق» حجم التغيير الذى جرى فى ظل نهضة الأفكار وعمل الجامعات وتبلور القوى الجديدة، وتسجل أحداث «السكرية» هذا التزاحم على الكفاح من أجل الحرية، ووجود الفكر الدينى من ناحية والآخر اليسارى. وقد نبع الإتجاهان من خلال أسرة واحدة انتمى إليها إبراهيم وأحمد شوكت ووقف بينهما «كمال عبد الجواد» المثقف الذى اختار عدم الانتماء وعدم الاختيار فقط فى حيرة أنواء «الأنا» عندما تنغلق على ذاتها.

وانتقل المحاضر إلى مرحلة ما بعد الثورة فى ظل الأعمال النقدية التى خرجت تتحدث عن مجتمع جديد تخلص من الاستعمار لكنه أوجد طبقة جديدة من «العسكرتاريا» لذلك اندمجت شرائح من المثقفين والطبقة الوسطى فى حلقات التدخين، إذ لم يعد لهم دور فى المجتمع.

وكان التطهير ألقى بعيسى الدباغ فى «السمان والخريف» على الهامش والتجاهل عتابًا له على تورطه فى الفساد، وهو الوطنى الذى شارك فى الاحتجاج، ومكافحة الاحتلال. لكن السلطة الجديدة اتهمت «الوفد» بالخضوع للإنجليز فى حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ كما أن سلطة الوفد مع أحزاب ما قبل الثورة تورطت فى الرشوة والفساد. ولعل من الأهمية إعادة قراءة محفوظ فى هذه الأعمال النقدية التى نشرها مع «اللص والكلاب»، «الطريق» «الشحاذ» وحتى الوصول إلى «ثرثرة على النيل».

والحقيقة أنه تمتع بحرية مطلقة فى النشر، ولم تتعرض رواياته للمصادرة رغم أنها كانت تنقد النظام بعنف، ولكن بأسلوب الرواية.

وقد تحدثت «سوسن حمادة» فى «السكرية» عن مكر الشكل القصصى، وأنه يمكن احتواء كل شىء دون التعرض لرقابة أو مصادرة.

وتابع محفوظ رصده للحياة المصرية بعد زلزال النكسة، ولعل روايته البارزة «المرايا» تدور فى عمق المجتمع حول الأسباب التى أدت إلى الهزيمة العسكرية التى تعرضت لها مصر. وشخصيات هذا العمل تعبر عن شبكة المجتمع وما تعرضت له أسماء ثائرة متمردة من قمع وكبت أنهى ثورتها، وما كانت تحمله من أفكار ورؤى.

ويدين محفوظ المجتمع المحافظ وتقاليده التى كانت وراء عدم دخول عصر العلم والتكنولوجيا مما كان له أكبر الأثر فى تحقيق الهزيمة.

ولعلنا نتذكر شخصية «عرفة» فى «أولاد حارتنا» الذى كان يحمل رسالة العلم، ويسعى لمنحها للمجتمع وفقراءة الحارة لمجابهة قوى الظلم والسحق الاجتماعى.

والاستماع إلى د. رشيد العنانى وهو يتحدث بصوت العلم والاستيعاب لعالم نجيب محفوظ متعة حقيقية، وهو ناقد يهمه التفسير الداخلى للأعمال الروائية، وغير منشغل بربط أعمال

الروائى برؤى خارجة عن عالمه فهو - أى الناقد - يتميز بالموضوعية الصارمة فى الارتباط بالنص وعدم تجاوزه أو الخروج عنه.

وهذه طريقة مطلوبة فى التعامل مع روائى بحجم نجيب محفوظ، وقد ارتبط الروائى بعمق الهيكل الاجتماعى المصرى، وقد تخفى وراء شخصيات اختارها بعناية، لكنه دائمًا يوجه اللوم إلى غياب العدل وسيطرة القوة وهيمنة الفقر والجهل فى حالة مصر قبل ثورة يوليو.

وقد تعلم سعيد مهران فى «اللص والكلاب» لكن رءوف علوان المثقف والصحفى وجهه إلى الطريق الخاطىء نحو سرقة الأغنياء لتحقيق العدل!. وكان علوان وراء محنة «اللص» الذى حاول تغيير حياته لكنه واجه الخيانة من «نبوية» زوجته، وعليش حبيبه، وصديقه وأستاذه رءوف علوانى.

وعالم نجيب محفوظ غاية الثراء، وهو بأدبه مرآة لمصر، وطموحها الفريد وحلقات الحصار حولها من أول قيود الاستعمار حتى لصوص الانفتاح.

ومحفوظ ابن لثورة ١٩١٩، وأحلامها الديمقراطية، لكنه انتقد الطبقة التى جاءت معها وحملت راية الكفاح ضد الاستعمار، ورغم تعاطفه مع «عيسى الدباغ» الوفدى القديم، فإنه عكس أنانيته عندما رفض الاندماج مع الطبقات الفقيرة، وقبول العمل والحياة معها.

ويوجه محفوظ للدباغ التهم، ويبكى مصيره، فقد كان يأمل أن يكون أكثر صلابة فى رفض الفساد والرشوة، فقد كان عنصرًا خيرًا لكن السلطة والطموح الطبقى وراء هزيمته، فقد تطلع لمصاهرة الأثرياء والحكام وطرد الطبقة الشعبية الممثلة فى «ريرى» عن عالمه رغم أنها كانت تحمل ابنته فى أحشائها.

رواية مثيرة تمامًا تلك «السمان والخريف» ومن الأهمية الرجوع والتأمل فى عالم نجيب محفوظ وهو ما فعله د. رشيد العنانى فى محاضرة مثمرة للغاية فى المكتب الثقافى المصرى.

وشهدت قاعة المكتب النقاش المفتوح حول نجيب محفوظ، مصر وزعماء، اجتهدوا فى رسم مسيرة الحياة المصرية ومستقبلها.